

القرآن الكريم ونظرية المعرفة من خلال مؤلفات بديع الزمان سعيد النورسي

حسين عاشور^P

{ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت
كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم { لقمان 27
{ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً { البقرة 269
{ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... { الحشر

21

استطاع الشيخ سعيد النورسي – رحمه الله – ومن خلال ما حباه به ربه – برحمته
التي وسعت كل شئ – من إخلاص وتجرد، وعلم وبحث وتأمل طويل ، أن يصل الى
المعاني الجلية والعظيمة ، ومنها ذلك الإدراك الفذ للفرق بين كلمات القرآن الكريم، أي
كلام الله ، وكلام الفلسفة والفلاسفة.

ويضرب الشيخ سعيد النورسي مثلاً لتوضيح ذلك الفرق بين كلام القرآن الكريم،
والحقائق والعلوم والمعرفة المترتبة على التأمل فيه ، وبين كلام الفلسفة، أو أي كلام غير
القرآن الكريم بالتمثيل برجل يمسك مرآة تجاه الشمس فالمرآة تلتقط – حسب سعتها –
نوراً وضياء ويحمل الألوان السبعة في الشمس ، فيكون الرجل ذا علاقة بالشمس بنسبة
تلك المرآة ، ويمكنه أن يستفيد منها إذا وجهها الى غرفته المظلمة أو الى مسكنه الخاص
الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء ، تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما
تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظم الشمس بينما رجل آخر يجابه الشمس
مباشرة ، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها ثم يصعد على جبل عال جدا وينظر الى شعشة
سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن

^P المشرف العام على مؤسسة المختار الإسلامي للصحافة والنشر ، التي تصدر ثلاثة مجلات شهريا : " المختار
الإسلامي " وهي المجلة الأم و " هاجر " لنساء المسلمين و " زمزم " لأطفال المسلمين. وقد أصدرت المؤسسة أكثر
من 700 عنوانا وتناولت في أكثر من دراسة حياة العلامة سعيد النورسي ومدرسته الفذة وأثره على الأمة
الإسلامية.

مشثله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس ، واجداً سبلا إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجرى حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية.

ويرى الشيخ سعيد النورسي أن الفلسفة تبحث عن الشكل الخارجى للأشياء ولا تصل الى كنهها وحقيقتها وسرها وحكمتها ، فهي أشبه بمن يبحث عن نقوش الحروف وجمالها وعلاقة بعضها ببعض وأوضاع كل منها وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب ، أما المعرفة القرآنية فتبحث عما تحت تلك النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة وأسرار نيرة بديعة فالقرآن الكريم يرشد الإنسان والجن إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور ، وهو الذي ينظر إلى الموجودات ، التي كل منها حرف ذو مغزى .

يقول الشيخ سعيد النورسي " إن الفلسفة قد غرقت في تزيينات حروف الموجودات ، وظلت مبهومة أمام علاقات بعضها ببعض حتى ضلت عن الحقيقة ، فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظرت إليها بالمعنى الإسمي أي أن الموجودات قائمة بذاتها ، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول ما أجمل هذا بدلا من ما أجمل خلق هذا ، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشئ ، فأهانت بإسنادها الجمال الى الشئ نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة "

ويرى الشيخ سعيد النورسي أن الباحث عن الحق من خلال الفلسفة يصل إلى أن يصبح فاقدا للغاية العظمى واللذة الكبرى ، فهو يبحث عن المصلحة والنهائية في شكلهما المباشر والذليل .

أما الباحث عن الحقيقة - خلال كلام القرآن الكريم- فهو عبد ، ولكنه عبد عزيز لا يستذل لشئ حتى لأعظم مخلوق وهو غير مغورو بل لين هين لا يتذلل بإرادته لغير فطره الجليل ، وهو فقير وضعيف ولكنه مستغن عن كل شئ بما ادخره له مالكة الكريم من خزائن لا تنفذ في الآخرة ، وهو قوي لاستناده الى قوة سيده المطلقة ثم إنه لا يعمل إلا لوجه الله ، بل لا يسعى إلا ضمن رضاه بلوغاً إلى الفضائل ونشرها .

وهكذا فالوصول إلى الفضائل من خلال كلمات القرآن أمر ميسور وطريق صحيح ، أما الفلسفة فهي تقدم نفعا محدودا وربما تؤدي إلى إرساء أساس غير أخلاقي للعلاقات بين البشر وربما تنتشر الرذائل وتعدى الفضائل .

وفي إطار التفرقة بين الآثار المترتبة على التربية من خلال كلمات القرآن الكريم والفلسفة ، يرى الشيخ سعيد النورسي ، أن الفلسفة ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية وتهدف (المنفعة) في كل شئ، وتتخذ (الصراع) دستوراً للحياة ، وتلتزم العنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء ، والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى ، ومن المعروف أن شأن القوة هو الاعتداء ، وشأن المنفعة هو التزاحم وشأن الصراع هو النزاع والجدال ، وشأن العنصرية هو الاعتداء ، ومن هنا نلمس لم سلبت سعادة البشرية من جراء اللهات وراء أفكار وكلمات الفلسفة .

أما حكمة القرآن الكريم ، فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة ، وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من المنفعة ، وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة ، بدلاً من دستور الصراع ، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمانة بالسوء ودفع الروح إلى معالى الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية .

إن شأن الحق هو الإتفاق وشأن الفضيلة هو التساند وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل للآخر ، وشأن لجام النفس وكبح جماحها وإخلاق الروح وحثها نحو الكمال هو السعادة ، { ونزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين } الإسراء 82 .

ويرى الشيخ سعید النورسي أن القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة ، إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة ، والتي لا تذكر إلا أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرة بديعة ومعجزات عظيمة ، فيكشف القرآن بتمزيقة ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوى الشعور ، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة ، فاتحاً كنزاً لا يفنى أمام العقول .

أما كلمة الفلسفة فهي تخفى جميع معجزات القدرة الإلهية وتستترها تحت غطاء الألفة والعادة ، فتتجاوزها دون اكتراث ، بل تتجاهلها دون مبالاة بها ، فلا تعرض أمام أنظار ذوى الشعور إلا أفراداً نادرة شذت عن تناسق الخلقة وتردت عن كمال الفطرة السليمة مدعية أنها نماذج حكمة ذات عبرة .

{ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً }

على أنه لا ينبغي أن يفهم من كلام الشيخ سعید النورسي ، رفضه العلم والاقتصاد على فهم حقائق الكون وخاصة الجزئية منها على القرآن الكريم ، بل لابد من طلب العلم الطبيعي ، الذي يعرفنا الله من خلال دقائق هذا الكون وبه نفهم القرآن الكريم ، وبه أيضاً نتقدم وسائلنا وراحتنا في الحياة ، وهذا من صميم الطلب القرآني { قل سيروا في الأرض فانظروا } ، وكذلك يجب أن نفرق بين العلوم الطبيعية وبين الفلسفة ، ولاسيما بين الفلسفة الأوروبية الصراعية ، والفلسفة المستمدة من الحضارة الإسلامية .